مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(تيطس ٣: ٨-١٥)

يا ولدي تيطسُ صادقةٌ هي الكلمةُ وإيَّاها أريدُ أن تقرِّرَ حتى يهتمَّ الذين آمنوا باللهِ في القيامِ بالأعمالِ الحسنةِ. فهذه هي الأعمالُ الحسنةُ والنافعة* أمَّا المباحثاتُ الهذَيانيَّةُ والأنسابُ والخصوماتُ والمماحكاتُ الناموسيَّةُ فاجتَنِبْها. فإنَّها غيرُ نافعةٍ وباطلةٌ* ورجُل البدعةِ بعد الإنذارِ مرَّةً وأخرى أعرِضْ عنه* عالِماً أنَّ مَن هو كذلك قدِ اعتَسفَ وهو في الخطيئةِ يقضي بنفسه على نفسه* ومتى أرسلتُ إليك أرتِماسَ أو تيخيكوسَ فبادِرْ أن تأتيَني إلى نيكوبولِسَ لأنّي قد عزمتُ أن أُشتِّيَ هناك* أمَّا زيناسُ معلِّمُ الناموسِ وأبلُّوسُ فاجتهِدْ في تشييعهما متأهبين لئلاَّ يُعوِزُهما شيءٌ* وليتعلَّمْ

محاربو الأيقونات

العدد ٢٠٠٨/٤١

الأحد ١٢ تشرين الأول

أحد آباء المجمع المسكوني السابع

تذكار القديسين الشهداء برووفوس وطاراخوس وأندرونيكس

اللحن الثامن

إنجيل السَحَر السادس

لقد كرّس المجمع المسكوني السابع (نيقية، ٧٨٧)، آخر المجامع المسكونية في كنيسة الشرق الأرثوذكسية، إكرام الأيقونات وحضورها الكثيف في الليتورجيا. نحن لا نعرف الكثير عن الأسباب المباشرة التي أذكت الحملة على الأيقونات في الإمبراطورية البيزنطية بدءاً بالعام ٧٣٠ والتي استمرت، على تقطّع، حتى العام ٨٤٣. لكنّنا مطلعون، على نحو كاف، على الحجج اللاهوتية التي لجأ إليها محاربو الأيقونات، ذلك أن المجمع المسكوني السابع حفظ لنا أعمال مجمع «هيريا Hiereia» المعادي للأيقونات (٧٥٤) وفنّدها.

قبل التطرّق إلى هذه الحجج، لا بدّ من ملاحظة أوّلية. إنّ اندلاع الصراع حول الأيقونات يثبت، بما لا يقبل الشكّ، أنّ الأيقونات كانت حاضرةً في وجدان الكنيسة وضمير مؤمنيها قبل هذا الصراع، أي قبل بدايات القرن الثامن. لكنّ هذا الاندلاع يشير، من جهة أخرى، إلى أنّ إكرام الأيقونات واستخدامها في العبادة لم يكن مسألةً يسلّم بها الجميع. والحقّ أنّ محاربي الأيقونات لم يوفّروا جهداً في الاستنجاد ببعض الأصوات الكنسيّة التي كانت، في الماضي، قد عبّرت عن تحفّظها حيال الصور المقدّسة. والأكيد أنّ القرون السبعة الأولى من تاريخ الكنيسة عرفت أصواتاً استهجنت إكرام الأيقونات أو حذّرت من الإغراق فيه. فالمعروف، مثلاً، عن القديس إبيفانيوس القبرصي (توفي العام ٤٠٣) أنّه كان يجنح إلى انتقاد الصور ذات الطابع الكنسيّ.

لكنّ الأكيد أيضاً أنّ محاربي الأيقونات غالوا في تفسير أقواله المختصّة بالصور وحمّلوا بعضها ما لا يحتمل من المعنى. كما أنّ ثمّة رسالة تُنسب إلى الكاتب الكنسي إفسافيوس القيصري، المعروف بسبب كتابه في التاريخ الكنسي، يهاجم فيها ما كان يقوم به بعض المؤمنين من الاحتفاظ بصور يسوع. وهو يعتبر أنّ اتّحاد الألوهة بالطبيعة البشرية في يسوع يجعل من المتعذّر تصوير بشريّة يسوع، لأنّ هذه البشريّة باتت، بسبب نورانيّتها وشفافيّتها، مختلفةً عمّا هو معهود

ذوونا أن يقوموا بالأعمالِ الصالحةِ للحاجاتِ الضروريَّة حتى لا يكونوا غيرَ مثمِرين* يسلِّمُ عليكَ جميعُ الذينَ معي* سلِّمْ على الذين يُحبُّوننا في الإيمان. النعمةُ معكم أجمعين. آمين.

الإنجيل

(متى ٥: ١٤-١٩)

قال الربُّ لتلاميذهِ أنتم نورُ العالم. لا يمكنُ أن تَخْفى مدينةٌ واقعةٌ على جبلٍ* ولا يُوقَدُ سِراجٌ ويُوضَعُ تحت المكيال لكن على المنارة ليُضيءَ لجميع الذين في البيت* هكذا فليُضئ نورُكم قدَّامَ الناس ليرَوا أعمالَكم الصالحةَ ويُمجّدوا أباكم الذي في السموات. لا تَظنُّوا أنّي أتيتُ لأحُلَّ الناموسَ والأنبياءَ، إنّي لم آتِ لأحُلَّ لكن لأُتمّم* الحقَّ أقول لكم إنَّه إلى أن تزولَ السماءُ والأرضُ لا يزولُ حَرْفٌ واحدٌ أو نُقطةٌ واحدةٌ من الناموس حتى يَتِمَّ الكلُّ* فكلُّ مَن يَحُلُّ واحدةً من هذه الوصايا الصغارِ ويُعلّمُ الناسَ هكذا، فإنَّه يُدعى صغيراً في ملكوتِ السموات. وأمَّا الذي يعملُ

لدى سائر البشر. رأي إفسافيوس هذا لا ينسجم، طبعاً، مع العقيدة الأرثوذكسية التي تحسب أنّ طبيعة ابن الله البشرية كانت طبيعةً بشريّةً حقيقيّة، رغم اتّحادها باللاهوت، ما يسمح بتصوير يسوع، على ما يوضح القديس يوحنا الدمشقي.

الأيقونات، إذاً، كانت منتشرة في العالم المسيحيّ، على عتبة القرن الثامن، وكانت تحظى بشعبيّة كبيرة في أوساط المؤمنين. ويؤكّد هذه الشعبيّة ما نعرفه عن انتشار صور الرب يسوع المسيح وأمه وقدّيسيه بدءاً من القرن الرابع، علماً بأنّ أقدم الصور يعود إلى القرن الثالث، وأهمّها ما عُثر عليه في الدياميس الرومانيّة وفي كنيسة دورا أوروبوس الواقعة في منطقة دير الزور شمالي سورية. بيد أنّ هذه الشعبيّة لم تكن قد حظيت بعد بأساس لاهوتي متين، ما حدا ببعض اللاهوتيين إلى توجيه اللائمة إلى مكرّمي الصور المقدّسة، وذلك خوفاً من تجربة الخلط بين الخالق والمخلوق، استناداً إلى وصيّة تحريم الصور في العهد القديم: «أنا الربُّ إلهُكَ الذي أخرجكَ من أرض مصرَ من بيتِ العبوديَّة، لا يكُنْ لك آلهَةٌ أخرى أمامي، لا تصنع لك تِمثالاً منحوتاً ولا صورةً ممَّا في السماءِ من فوقُ وما في الأرضِ من تحتُ وما في الماءُ من تحتِ الأرض. لا تسجُدْ لهنَّ ولا تعبدهنَّ» (خر ٢٠: ٢-٥). وقد حاول بعض اللاهوتيين، مثل إفسافيوس القيصري، إيجاد حجّة لاهوتيّة، مستمدّة من اتّحاد الطبيعتين في يسوع، يبرّرون بها نقدهم الصور المقدّسة. لكنّ الملاحظ أنّ هذه الحجّة أتت ضعيفة. فالتجسّد الإلهي، أي صيرورة ابن الله إنساناً، هو بالذات ما يبرّر الأيقونات.

المستند الكتابي الأساسي الذي لجأ إليه محاربو الأيقونات هو، إذاً، وصيّة تحريم الصور في العهد القديم. وعلى هذه الحجّة يردّ القديس يوحنا الدمشقي بأنّ ما كان متعذّراً في العهد القديم، بسبب طبيعة الله غير المرئية، بات ممكناً في العهد الجديد بفضل تجسّد ابن الله. يضاف إلى ذلك أنّ وصيّة العهد القديم القائلة بتحريم كلّ صورة ومنحوت كانت تهدف إلى حماية بني إسرائيل من وثنيّة ما كان يحيط بهم من شعوب كالآراميين والمصريين وشعوب بلاد ما بين النهرين. لكنّ هذا الخطر انتفى، إلى حدٍّ بعيد، بزوال الوثنيّة، رغم أنّه يبقى ماثلاً في تعرّض بعض المؤمنين إلى الخلط بين الخالق والمخلوق، بين المصوَّر والصورة. ولعلّ هذا ما دفع القديس يوحنا الدمشقي إلى الإتيان بتمييز جوهريّ بات مدماكاً من مداميك تعليم الكنيسة الشرقيّة عن الأيقونات، هو التمييز بين العبادة والإكرام. فالعبادة تجوز للخالق وحده. أمّا سجود المؤمنين للأيقونات فهو سجود إكراميّ لا شيء يبرّره إلاّ أنّهم يعبدون الرب يسوع المسيح الذي تصوّره هذه الأيقونات مباشرة، أو تصوّره على نحو غير مباشر عبر تصويرها أمّه وخاصّته الرسل وأحبّائه القديسين.

فضلاً عن الإستناد إلى العهد القديم وإلى أقوال بعض المعلّمين الكنسيّين مثل إبيفانيوس وإفسافيوس، اعتبر محاربو الأيقونات أنّ تصوير يسوع غير ممكن لاهوتيًّا. فالمصوَّر، في رأيهم، هو إمّا الطبيعة الإلهيَّة أو الطبيعة البشريّة. الإمكانيَّة الأولى متعذّرة،

ويُعلِّمُ فهذا يُدعى عظيماً في ملكوت السموات.

تأمل

ان الحقيقة التي تقود إلى الحياة الروحية سطّرها رجال ملهمون من الله كالأنبياء والرسل. أما الحقيقة الكاملة الكلية فقد بشّر بها نبع الحق. ذاك اتخذ صوت الإنسان من أجل هذه الغاية. أين يجد الإنسان الحقيقة النقية الخالصة الكلية؟ أيجدها في غير كلام الله؟ أليس الله الحقيقة الوحيدة والصلاح الوحيد؟ اننا سنجد الصلاح في تعليم المسيح لا في آراء المبشرين الذين يجهلون الحقيقة، وبجهلهم لها يسبّبون الشقاء للإنسان. عندما نرى الشر في ذواتنا والآخرين يجب أن نعاني الآلام وأن نصلّي من أجل نفوسنا ومن أجل الآخرين لاستئصال الشر حتى يسيطر الخير. عندما نملك مثل هذا الشوق السامي نستعين بالرحمة الإلهية ونرغب أن نرى مجد الله مشعاً وساطعاً في كل مكان.

ان الخطيئة هي الشيء الذي يزعج الذين يعيشون في المسيح أولاً، لأن الخطيئة خبث والمسيحيون يريدون الصلاح، ثانياً لأن

طبعاً، لأنّ الطبيعة الإلهيَّة غير مرئية، وهي، تالياً، غير قابلة للتصوير. أمّا إذا كان المصوَّر هو الطبيعة البشريَّة فهذا يؤدّي، حُكماً، إلى الفصل بين الطبيعتين، وهذا يخالف ما قال به مجمع خلقيدونية (٤٥١) من اتّحاد الطبائع في المسيح. للوهلة الأولى، تظهر هذه الحجّة قويّة. لكنّ الآباء المدافعين عن الأيقونات، ولا سيّما ثيودوروس الستوديتي (٧٥٩–٨٢٦)، فضحوا سوء منطقها. فالمصوَّر، في أيقونة المسيح، ليس الطبيعة البشريّة، ولا هو، بطبيعة الحال، الطبيعة الإلهيَّة، بل أُقنوم ابن الله، الذي أضحى مرئيًّا بفضل التجسد. وظيفة الطبيعة البشريَّة التي اتّخذها ابن الله بحلوله في أحشاء مريم هي أن تجعل من ابن الله إنساناً حقيقيًّا، وتالياً أن تجعله مرئيًّا وقابلاً للتصوير كسائر البشر. لكنّ هذه الطبيعة لا وجود لها في المطلق، بل هي حاضرة دوماً في الأقنوم، أُقنوم ابن الله أو أُقنوم أيٍّ من سائر البشر. فنحن حين نرسم، مثلاً، بطرس أو بولس أو سواهما من الناس، لا نرسم طبيعة بطرس أو طبيعة بولس البشريّة، بل نرسم بطرس بوصفه إنساناً وبولس بوصفه إنساناً. وهذا ينطبق أيضاً على ابن الله المتجسّد. فأيقونة يسوع لا ترسم طبيعة يسوع البشريّة، بل ترسم يسوع بوصفه إنساناً. والناظر يعرف أنّ يسوع المصوَّر أمام عينيه إنسان حقيقيّ. لكنّه يعرف، أيضاً، أنّ هذا المصوَّر ليس مجرّد إنسان، بل هو أيضاً إله حقيقيّ. والحقّ أنّ كلّ هذا الجدل اللاهوتيّ، ولئن بدا عسيراً بعض الشيء من منظور الحاضر، إلاّ أنّه يدلّ على أنّ الرهان الأخير في ما يُعرف بـ«حرب الأيقونات» هو مدى حقيقيّة تجسّد ابن الله. ولعلّ هذا يوضح بعضاً من السبب الذي جعل الكنيسة الشرقيّة ترى في المجمع المنعقد في نيقية العام ٧٨٧، والذي نعيّد له اليوم، مجمعاً مسكونيًّا لا يقلّ أهميَّة عن المجامع المسكونيّة التي سبقته.

رسالة يعقوب

«هل تريدُ أن تعلمَ أيُّها الإنسانُ الباطِلُ أنّ الإيمانَ بدونِ أعمالٍ ميّتٌ» (يع ٢: ٢٠).

لعل هذه الآية تلخص هدف الرسول يعقوب من كتابة رسالته، إذ ان همّه الأساسي أن لا يكون إيمان قارئ الرسالة جامداً ومجرَّد نظريات بل إيمان معبَّر عنه بالأفعال في كل أوجه الحياة. لذا نراه يتحدَّث عن كيفيَّة تعاطي المؤمن مع مواقف تواجهه كل يوم في حياته، مثل مواجهة التجارب والمحن والمرض والشقاقات والخصومات والثرثرة ومعاناة الفقراء من المؤمنين والأغنياء. فيحث المؤمنين على التعاطي مع هذه المواضيع بفرح وصبر وحكمة وطبعاً بالصلاة الواثقة برحمة الرب.

رسالة يعقوب في العهد الجديد هي الأولى من مجموعة الرسائل التي تسمَّى الجامعة (يعقوب، بطرس ١ و٢، يوحنا ١و٢و٣، يهوذا) أي الموجهة إلى المسيحيين عامة (الكنيسة الجامعة) وليس إلى كنيسة خاصة وبالتالي هي لا تعالج موضوعاً محدَّداً تواجهه كنيسة معيَّنة في مكان ما، بل هي تعاليم ومواضيع عامة. تحتوي على حكم ونصائح أدبية للسلوك المسيحي،

الخطيئة محاربة للناموس الإلهي فمن يحزن من أجل الخطيئة ينال فائدة روحية كبرى. أمريض أنت جسدياً فتحزن وتبكي لمرضك؟ المرض لا يتراجع ولا يهرب بالحزن والدموع بل يزداد. أما الخطيئة، هذا المرض النفسي، فالحزن دواؤها يرافقه الشعور بالتوبة، والحزن يحفظ الإنسان في مثل هذه الحالة من خطيئة جديدة، ويساعده على أن يترك حياة الخطيئة ويعتقه من كل مسؤولية الجرم الذي يثقله بالخطايا. ان الألم لا يخدم هدفاً غير هذا الهدف في الحياة الإنسانية.

اننا نجسر على اقتراف الخطيئة من أجل اللذة والمتعة اللتين تعد بهما. نبدّل صحة النفس بالخطيئة، بهذا المرض العضال القتّال، من أجل لذة خيالية. لو عرفنا إلى أي هلاك وضياع تقودنا الخطيئة لما أقدمنا على عمل كهذا، ولكن عندما نعرف هذه المعرفة المخلِّصة ونتوب ونحزن فمن الواضح اننا سنمقت الخطيئة وسنطرحها جانباً ونعتاض عنها بالصحة التي فقدناها بواسطة الخطيئة.

القديس نيقولا كاباسيلاس

ولم يراعِ كاتبها الترتيب المنطقي في مواضيعها، بل رتب فصولها حسب الأسلوب الذي رآه مناسباً. هي رسالة عمليَّة إلى آخر حدٍ من الحياة المسيحية، فيها يذكرنا يعقوب الرسول بالحاجة إلى مقاييس مسيحية أصيلة في كل حقل من حقول الحياة. لذا يمكننا القول ان ما تقدّمه الرسالة هو تعليم أخلاقي، ولكنه تعليم يستند إلى العقيدة اللاهوتية، إلى الله الخالق والرب يسوع المسيح المخلّص الممجَّد الذي يُدعى باسمه على المؤمنين بشكل عام وعلى المرضى بشكل خاص. رسالة يعقوب تحدّثنا عن الإيمان كما يجب أن يعيشه الإنسان. ففي الواقع نستطيع أن نعرف إذا كان إيمان شخص ما حقيقياً أم لا من طريقة سلوكه. فالإيمان الصحيح بالمسيح يفيض دائماً على بقية أوجه الحياة. فهو يؤثر على موقفنا الأساسي تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين وتجاه الحياة بشكل عام. لذا يجب أن لا يكون هناك تفاوت بين الإيمان والأعمال.

من حيث الشكل، تظهر رسالة يعقوب وكأنها عظة أو مقالة أخلاقية. فهي تشبه موعظة الرب يسوع على الجبل (متى ٥ و٦ و٧) من نواحي عديدة ولا سيما بروحها ومواضيعها العملية والوصايا، كما تحاكي الكتب الحِكَمية، في العهد القديم (مزامير، أمثال، الجامعة، إلخ...)، التي تحدثت عن الثبات في المحن، عن الحكمة والصلاة، عن ضبط اللسان والمحافظة على الشريعة، وتحاشي المحاباة، ومحبَّة القريب ولا سيما الفقير، والامتناع عن القَسَم والإقرار بالخطايا.

هناك تسعة مواضيع أساسية تعالجها هذه الرسالة:

١- **التجربة:** قبول التجارب بفرح، ونحن نحتاج إلى الحكمة لكي نفهمها. التجربة ليست من الله. الله غير مُجرِّب بالشرور، لأن من الله لا يخرج إلاَّ الخير (١: ٢-١٨).

٢- **السماع والعمل**: نسمع ونفكر ملياً قبل التصرُّف لئلا يأخذنا الغضب إلى الهاوية. كما علينا تتميم الكلمة بالأعمال الصالحة لتكون ديانتنا طاهرة (١: ١٩-٢٧).

٣- **محاباة الوجوه:** لا نفضل الأغنياء على الفقراء (٢: ١-١٣).

٤- **الإيمان والأعمال**: فالإيمان بدون أعمال ميت (٢: ١٤-٢٦).

٥- **اللسان:** هو ينبوع شر وينبوع خير، منه تخرج اللعنة أو البركة، يقود صاحبه إلى الهلاك أو الخلاص (٣: ١-١٢).

٦ - **الوداعة والغيرة والتحزّب والخصومات والشقاقات** (٣:١٣-١٨ و٤: ١-١٢).

٧- **الإتكال على الرب** مقابل الإكتفاء بالذات، وقساوة القلب خاصة لدى الأغنياء (٤: ١٣-١٧ و٥:١-٦).

٨- **الصبر والثبات:** ننتظر عودة الرب بصبر وهو يمنحنا السعادة في النهاية (٥: ٧-١١).

٩- عدم القَسَم والصلاة في مختلف أوضاع الحياة خاصة وقت المرض، والإهتمام بإخوتنا لأن كل مَن رد خاطئاً عن طريق الضلال يخلِّص نفساً من الموت (٥: ٨-٢٠).

نظراً لأهمية هذه المواضيع، سوف نسعى بنعمة الرب أن نعالجها بالتفصيل في الأعداد القادمة من النشرة لما فيه من فائدة للمؤمنين.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:
www.quartos.org.lb